الخشية في القرآن الكريم
« دراسة موضوعية »

بقلم

دكتور
طه عبد الخالق عبد العزيز طه

أستاذ مساعد
بقسم التفسير وعلوم القرآن

الخشية من الله فضيلة يتحلى بها المؤمنون ، وسبقهم إليها الأنبياء والمرسلون (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله)[١] . ورفع الله شأنها واهتم بأهلها فأخبر عن ذلك فى آيات كثيرة من القرآن الكريم .

وإنى أعرض هذا الموضوع (الخشية فى القرآن الكريم) عرضاً موضوعيا أبين فيه تلك المعانى العظيمة ، ولا أدعى أننى قمت ببحث هذا الموضوع على وجه الدقة والكمال فهذا أمر لا أدعيه لنفسى ، ولكنها المحاولة وحسبى أنى للخير قصدت وللجهد بذلت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

معنى الخشية

المعنى اللغوى : الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر تقول : خشى الرجل يخشى خشية أى خاف ، ثم يحمل عليه المجاز . فالخشية الخوف .

والمجاز قولهم : خشيت بمعنى علمت .

ويقال : هذا المكان أخشى من ذلك أى أشد خوفا[٢] .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٩

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق الأستاذ / عبد السلام هارون طبعة مصطفى الحلبى باب الخاء والشين ومايثلثها . لسان العرب لابن منظور طبعة دار المعارف مادة خشى .

المعنى الاصطلاحي : الخشية : خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه[1] .

الفرق بين الخشية والخوف :

(الخشية أشد الخوف ، وهي مأخوذة من قولهم : شجرة خشية إذا كانت يابسة ، وذلك فوات بالكلية .

والخوف من قولهم : ناقة خوفاء إذا كان بها داء ، وذلك نقص وليس بفوات ، ومن ثم خصصت الخشية بالله تعالى في قوله سبحانه : « ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب »)[2] .

والخشية ينظر فيها إلى عظمة المخشى وإن كان الخاشي عظيما بالنسبة لمن دونه .

أما الخوف فينظر فيه إلى ضعف الخائف وإن كان المخوف شيئاً هينا ، تقول مثلا : أخاف الحية ، ولا تقول أخشى الحية .

يقول صاحب البرهان بعد ذكره أصل اشتقاق كل منهما : (إن الخشية تكون من عظم المخشى وإن كان الخاشي قويا ، والخوف يكون

---

(١) مفردات القرآن للراغب طبعة دار الفكر مادة خشى / بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ٥٤٤/٢

(٢) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — مكتبة دار التراث ٧٨/٤ والآية رقم ٢١ من سورة الرعد .

من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أمراً يسيراً ويدل على ذلك أن الخاء والشين والياء في تقاليبها تدل على العظمة ، قالوا شيخ للسيد الكبير ، والخيش لما عظم من الكتان ، والخاء والواو والفاء في تقاليبها تدل على الضعف ، وانظر إلى الخوف لما فيه من ضعف القوة ، وقال تعالى : « ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » فإن الخوف من الله لعظمته ، يخشاه كل أحد كيف كانت حاله ، وسوء الحساب ربما لا يخافه من كان عالماً بالحساب ، وحاسب نفسه قبل أن يحاسب . وقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[1] .

وقال لموسى : « لا تخف »[2] أى لا يكون عندك من ضعف نفسك ما تخاف منه من فرعون .

فإن قيل : ورد « يخافون ربهم »[3] قيل : الخاشي من الله بالنسبة إلى عظمة الله ضعيف ، فيصح أن يقول : « يخشى ربه » لعظمته ، ويخاف ربه أى لضعفه بالنسبة إلى الله تعالى اهـ المقصود منه[4] .

وفرق بينهما صاحب الفروق اللغوية بأن الخوف يتعلق بالمكروه ومنزله ، تقول خفت زيدا ، وخفت المرض .

والخشية تتعلق بالمنزل دون المكروه نفسه ، ولذا قال سبحانه :

---

(١) سورة فاطر آية ٢٨
(٢) سورة النمل آية ١٠
(٣) سورة النحل آية ٥٠
(٤) البرهان ٧٨/٤

(يخشون) أولا و (يخافون) ثانياً[١] .

وتعقبه العلامة الألوسى : وعليه فلا يكون اعتبار الوعيد فى محله ، لكن هذا غير مسلم لقوله تعالى : « خشية املاق » و « لمن خشى العنت منكم »[٢] اهـ .

وبعد أن ذكر العلامة الألوسى أقوال العلماء فى ذلك ، قال : والحق أن مثل هذه الفروق أغلبى لا كلى وضعى ولذا لم يفرق كثير بينهما . نعم اختار الإمام أن المراد من (يخشون ربهم) أنهم يخافونه خوف مهابة وجلالة زاعما أنه لولا ذلك يلزم التكرار ، وفيه ومافيه[٣] .

وذكر القرآن للفظ (الخشية) فى آية دون لفظ (الخوف) يعطى دلالة واضحة على أنه المراد فى هذا المقام ، ولا يصلح الثانى ليقوم مقامه ، فالقرآن معجز بنظمه ومعجز بلفظه .

ورودها فى القرآن الكريم : —

وردت الخشية فى القرآن الكريم ٤٨ مرة

فذكرت متعلقة بلفظ الجلالة (الله) ٧ مرات

وبلفظ الربوبية ٧ مرات

---

(١) انظر الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى طبعة دار الآفاق الجديدة ، بيروت الطبعة الخامسه ص ٢٣٦

(٢) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة الألوسى طبعة دار الفكر ١٣ / ١٤٠

(٣) المرجع السابق .

وباسمه تعالى (الرحمن) مرتين

وبضمير المتكلم الخاص بالله تعالى « واخشون » ٤ مرات

وبضمير يعود على الله تعالى ١٠ مرات

وذكرت متعلقة بغير الله تعالى ١٨ مرة على النحو التالى :

خشية يوم القيامة مرتين

والخشية المتعلقة بالعباد ١٠ مرات

وخشية العباد مالا يرجون ٦ مرات[١]

الأنواع الجامعة للخشية فى القرآن الكريم :

بعد التأمل فى آيات القرآن الكريم التى وردت فيها مادة « خشى » ورد الأشباه والنظائر إلى أصولها العامة الجامعة فيمكن تلخيصها فى الأنواع الآتية :

النوع الأول : خشية العباد من الله .

ويشتمل هذا النوع على :

١ — خشية الأنبياء :

٢ — خشية الملائكة .

٣ — خشية المؤمنين .

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى طبعة دار الشعب .

وتشتمل على :

(أ) أمر الله المؤمنين بخشيته والنهى عن خشيتهم المشركين .

(ب) خشية يوم القيامة .

(ج) اهتمام القرآن بأهل الخشية .

(د) انتفاع أهل الخشية بالإنذار .

(هـ) وصف أهل الخشية .

(و) جزاء أهل الخشية .

٤ — خشية الحجارة لله :

النوع الثانى : خشية العباد بعضهم بعضاً .

ويشتمل على :

١ — خشية هارون كلام موسى .

٢ — خشية العبد الصالح دفع الغلام والديه إلى الكفر .

٣ — المؤمنون لايخشون المشركين .

٤ — خشية المنافقين الدوائر .

النوع الثالث : خشية العباد مالا يرجون ويشتمل على :

(أ) خشية الآباء ترك ذرية ضعافاً .

(ب) خشية الشباب العنت .

(جـ) خشية المشركين الفقر .

وأبدأ بعون الله تعالى فى بيان ذلك .

النوع الأول :

خشيه العباد من الله

ويشتمل على : —

١ — خشية الأنبياء .

٢ — خشية الملائكة .

٣ — خشية المؤمنين .

١ — خشية الأنبياء

وردت تلك الخشية فى قوله تعالى : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى ازواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان امر الله مفعولا »(١) .

وفى قوله تعالى : « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا »(٢) .

ففى الآية الأولى يذكر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بحالة زيد حب رسول الله ﷺ الذى أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم النبى ﷺ بعتقه

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٩ .

والإحسان إليه، وحسن معاملته إلى درجة أنه اختار البقاء معه على اللحاق بقومه.

وزوجه النبي ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش رضي الله عنها، ومكثت معه مدة حصل فيها شقاق بينهما، وكان زيد يأتي إلى النبي ﷺ يشكوها إليه.

وقد أعلم الله تعالى نبيه ﷺ أنها ستكون من أزواجه، فكان ﷺ يستحي أن يأمر زيداً بطلاقها، ويأمره أن يمسك عليه زوجه ويتقي الله تعالى.

روى الإمام البخاري بسنده عن أنس قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول اتق الله وأمسك عليك، زوجك)[1].

وكان النبي ﷺ يخشى الناس أن يقولوا تزوج محمد مطلقة ابنه، وكان النبي ﷺ قد تبنى زيداً وهو صبي.

يقول الحافظ ابن حجر: والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج محمد امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابناً ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم. وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية. والله أعلم. اهـ[2].

(١) صحيح البخاري للإمام عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري. طبعة دار ابن كثير — سوريا — حلب. ك التوحيد ب وكان عرشه على الماء.

(٢) فتح الباري شرح البخاري ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي طبعة الأهرام التجاري - نشر دار الريان للتراث ٣٨٤/٨.

وخشيته ﷺ الناس لا تتعارض مع خشيته الله تعالى، إذ الآية لم تحرم خشية الناس بمعنى الاستحياء منهم لأن استحياءه أمر معروف: قال تعالى: «إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق»[1].

لكن خشيته لله تعالى أعظم من خشيته الناس.

وهذا القدر كان يعلمه النبي ﷺ ويعمل به إذ يستحيل عليه أن يسوي بين خشيته الله تعالى وخشيته الناس.

وفي الحديث (أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له)[2].

وقال تعالى: — «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً»[3].

والرسول ﷺ داخل تحت هذا النص. (وإذ قد علم أنه متبع لما أذن الله له اتباعه من سنة الأنبياء قبله علم أنه متصف بمضمون قوله تعالى: «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله» بحكم قياس المساواة، فعلم أن الخشية في قوله «وتخشى الناس» ليست خشية خوف توجب ترك ما يكرهه الناس أو فعل ما يرغبونه بحيث يكون الناس محتسبين على النبي عليه الصلاة والسلام ولكنها توقع أن يصدر

(١) سورة الأحزاب من الآية ٥٣.

(٢) صحيح البخاري ك النكاح ب الترغيب في النكاح، صحيح مسلم ك الصيام ٧٤ ج ١١٠٨:

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٩.

من الناس ما يكرهه النبي عليه الصلاة والسلام ويدل لذلك قوله: «وكفى بالله حسيبا» أي حسيب الأنبياء لاغيره[1].

وإذا كان الله تعالى قد وصف المرسلين عليهم الصلاة والسلام بأنهم لايخشون أحدا إلا الله فقد أخبر الله عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال: (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى)[2] وقوله تعالى: «لاتخاف دركا ولاتخشى»[3].

فما وجه الجمع بين ذلك؟.

أقول: سبق أن عرف الراغب الخشية بأنها. خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، وذكر آيات منها هذه الآية «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولايخشون أحدا إلا الله».

يقول العلامة الألوسي: ونفي الخاص لايستلزم نفي العام فقد يجتمع مع اثباته، وهذا أولى مما قيل في الجواب من أن الخشية أخص من الخوف الشديد، والمنفي في الآية ههنا هو ذلك لامطلق الخوف المثبت فيما حكي عن موسى عليه السلام.

وأجاب آخر بأن المراد بالخشية المنفية الخوف الذي يحدث بعد الفكر والنظر وليس من العوارض الطبيعية البشرية، والخوف المثبت هو الخوف العارض بحسب البشرية بادي الرأي وكم قد عرض مثله لموسى عليه السلام ولغيره من إخوانه وهو مما لا نقص فيه كما لايخفى على كامل، وهو جواب حسن ...[4] اهـ.

---

(١) التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر ٢٢/٤٢ ـ ٤٣ بتصرف.
(٢) سورة طه آية ٤٥.
(٣) سورة طه من الآية ٧٧.
(٤) روح المعاني ٢٢/ ٢٨.

٢ ـ خشية الملائكة

وردت خشية الملائكة الله تعالى في معرض الرد على افتراء من افتراءات المشركين وإظهار بطلانها وبيان زيفها. (وهم حي من خزاعة قالوا: الملائكة بنات الله[1].

قال تعالى: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون • لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)[2].

سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا فليست الملائكة بنات له بل هم عباد مخلوقون له مقربون عنده، بإذنه يقولون، وبأمره يعملون، فطلق انقيادهم له تعالى وهو عليم بهم لاتخفى عليه خافية من أمرهم، ولايشفعون إلا لمن ارتضاه أن يشفع له.

ومع ذلك فهم يعظمونه تعظيم من يخاف سلطانه ويحذر مخالفة أمره.

والاشفاق: عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف مما يلحقه[3].

وسبق تعريف الخشية بأنها: خوف يشوبه تعظيم المخشى منه.

أما الشفقة: فهي خوف مع اعتناء، ويعدى بمن كما يعدى الخوف، وقد يعدى بعلى بملاحظة الحنو والعطف.

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٢.
(٢) سورة الأنبياء آية ٢٦ ـ ٢٨.
(٣) مفردات القرآن للراغب ماده شفق.

يقول العلامة الألوسى عند قوله تعالى : (وهم من خشيته مشفقون) أى بسبب خوف عذابه عز وجل (مشفقون) متوقعون من أمارة ضعيفة كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله تعالى ا . هـ[1] .

فالملائكة دائمو الخوف من الله تعالى والوجل منه كما قال سبحانه : (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ● يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون)[2] .

والاشفاق صفة دائمة لهم كما يفهم ذلك من اسمية الجملة (وهم من خشيته مشفقون) .

وأخرج أن أبى حاتم عن جابر : قال رسول الله ﷺ ليلة أسرى بى (مررت بجبريل عليه السلام وهو بالملأ الأعلى ملقى كالحلس البالى من خشية الله تعالى)[3] .

(١) روح المعانى ١٧ / ٣٣ .
(٢) سورة النحل آية ٤٩ — ٥٠ .
(٣) روح المعانى ١٧ / ٣٣ .

٣ — خشية المؤمنين

الخشية من الله تعالى شعار الصالحين ، وطليعة صفات المهتدين ، وهى أفضل حافز على الطاعة ، وخير باعث على إحسان العمل ، وصاحبها يمتنع عن فعل المحرمات ويسارع إلى فعل الخيرات ، وعلى قدر العلم بالله تعالى تكون الخشية له سبحانه .

قال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور)[1] .

فقد خصص الله أهل خشيته وهم العلماء .

قال مجاهد : إنما العالم من خشى الله عز وجل .

وقال مسروق : كفى بخشية الله علما و كفى بالاغترار جهلا ، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له .

قال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم .

وقال الشعبى : العالم من خاف الله[2] .

وعلى ذلك فأى عالم بلغ فى علمه مبلغا ويصر على كفره لا يكون عالما بل جاهل بالله تعالى .

يقول العلامة الألوسى : والمراد بالعلماء العاملون بالله عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الحميدة وسائر شئونه الجميلة لا العارفون

(١) سورة فاطر آية ٢٨ .
(٢) فتح القدير للشوكانى طبعة مصطفى الحلبى ٣٤٨/٤ .

بالنحو والصرف مثلا فمدار الخشية ذلك لا هذه المعرفة فكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى ا.هـ[1] .

وخشيتهم الله تعالى دون أن يروه ، أو يروا عذابه ، أو غائبين عن الخلق فى خلواتهم .

قال تعالى : (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير)[2] وقال سبحانه : (الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون)[3] وقال جل وعلا : (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب)[4] ، وقال سبحانه : (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)[5] .

وهؤلاء هم أولوا الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل على الرسول ﷺ حق ، فكان لهم الفضل فى الدنيا والنعيم المقيم فى الأخرة . قال تعالى : (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب • والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار)[6] .

فوصفهم الله فى تلك الآيات بصفات ثمانية منها خشيتهم ربهم خشية

---

(١) روح المعانى ٢٢/١٩١ .
(١) سورة الملك آية ١٢ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٤٩ .
(٤) سورة فاطر آية ١٨ .
(٥) سورة ق آية ٣٣ .
(٦) سورة الرعد آية ٢٠ — ٢٢ .

تملأ قلوبهم فيراقبونه فى كل ما يأتون وما يذرون . ويذكر القرآن الكريم فى موضع آخر تلك الصفة فى طليعة الصفات التى يتحلى بها السابقون بالخيرات ، فيقول سبحانه : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون • والذين هم بآيات ربهم يؤمنون • والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون »[1] .

فوصفهم الله تعالى بأربع صفات فى هذه الآيات : —

الأولى : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) والمعنى أنهم لخشية ربهم يخافون عذابه .

الثانية : « والذين هم بآيات ربهم يؤمنون » بالآيات التنزيلة والتكوينية والتصديق بأنها دلائل على مدلول حق .

الثالثة : « والذين هم بربهم لا يشركون » أى لا يشركون به تعالى شركا جلياً أو خفياً .

الرابعة : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » يعطون أى نوع من أنواع العطاء الواجب أو المندوب شرعاً ، ويملأهم الخوف من ربهم أن يرجعوا إليه فلا يجدون ذلك فى ميزان حسناتهم . « وكرر اسم الموصول « الذين » للاهتمام بكل صلة من الصلات ، والصلات الأربع عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر فى حيز صلاتها من الأوصاف المذكورة كأنه قيل : إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون وبآيات ربهم يؤمنون . . إلخ[2] .

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٧ — ٦١ .
(٢) روح المعانى ١٧ / ٤٥ .

وأولئك المتصفون بحسن الأعمال وعظيم الخصال هم المسارعون بالخيرات وهم لها سابقون .

أحقية أهل الخشية بعمارة المساجد :

تتحدث الآيات فى موضع آخر عمن هو حقيق بعمارة المساجد فذكرت أوصافاً متعددة فى ختامها خشية المؤمنين . قال تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »[1] .

« فمن كان جامعاً بين هذه الأوصاف فهو الحقيق بعمارة المساجد لا من كان خالياً منها أو من بعضها ، واقتصر على ذكر الصلاة والزكاة والخشية تنبيهاً بما هو من أعظم أمور الدين على ما عداه مما افترضه الله على عباده لأن كل ذلك من لوازم الإيمان »[2]

وهؤلاء الموصفون بتلك الصفات الجليلة هم المهتدون ، وتصدير اهتدائهم بكلمة « عسى » ، لحسم أطماع الكافرين عن الوصول إلى مواقف الاهتداء ، لأن هؤلاء المؤمنين وهم — هم — إذا كان أمرهم دائراً بين لعل وعسى فما بال الكفرة بيت المخازى والقبائح »[3] .

ومع جمع المؤمنين بين هذه العبادات لا يجزمون بالمثوبة والرضوان فى الآخرة ، بل يكونون بين الخوف الذى يمنعهم عن التقصير والرجاء الذى يدفعهم على مواصلة المسير .

---

(١) سورة التوبة آيه ١٨ .
(٢) فتح القدير ٢ / ٣٤٤ .
(٣) روح المعانى ١٠ / ٦٦ .

وما دام كذلك فواجب علينا أن نلبى أمر الله تعالى بالخشية منه ولا نخشى أحدا سواه . قال تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون »[1] .

فورد النهى عن خشية الظالمين فى معرض الحديث عن أمر الله تعالى باستقبال المسجد الحرام ، وبيان حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما فى كتبهم أن سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ ، عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التى هى أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها »[2] .

وقوله : « فلا تخشوهم » لا تخافوا كلام الظالمين ، إذ لا أساس له من الحق ، ولا يستند إلى برهان ، وإنما الحقيق بالخشية الله تعالى ولذ قال سبحانه « واخشونى » فإنى القادر على جزائكم .

وفيه إشارة إلى أن أهل الحق هم الذين يخشى جانبهم ، أما أهل الباطل لا ينبغى أن يخشوا ، لأن الحق يعلو ولا يعلى .

وفى موضع آخر يأتى النهى عن خشية المشركين والأمر بخشية الله تعالى فى معرض الحديث عن وجوب قتال الناكثين أيمانهم المعتدين ،

---

(١) سورة البقرة آية ١٥٠ .
(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير نشر مكتبة دار التراث الإسلامى — سوريا — حلب ١ / ١٩٥ .

قال تعالى : (ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)[1] فأقام القرآن الكريم ثلاث حجج على وجوب قتالهم .

١ — نكثوا أيمانهم (التى حلفوها لتأكيد عهدهم الذى عقدوه مع النبى ﷺ وأصحابه على أن لا يعاونوا عليكم فعاونوا حلفاءهم بنى بكر على حلفاء رسول الله ﷺ خزاعة . والمراد بناكثى العهد قريش .

٢ — همهم بإخراج الرسول ﷺ من مكة مسقط رأسه عليه الصلاة والسلام حين تشاوروا بدار الندوة حسبما ذكر فى قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك »[1] .

٣ — بدؤهم بالقتال يوم بدر « وهم بدءوكم أول مرة »[2] .

ثم زاد الحث على القتال بقوله « أتخشونهم » أى أتتركون قتالهم خشية أن يصيبكم مكروه منهم .

« فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » أى الله أحق من غيره بالخشية .

والمعنى : « إن المؤمن حق الإيمان لا يخاف ولا يخشى إلا الله تعالى لعلمه بأنه هو الذى بيده ملكوت كل شئ ، فإن خشى غيره بمقتضى سننه تعالى فى أسباب الضر والنفع ، فلا يرجح خشيته على خشية الله تعالى بأن تحمله على عصيانه ومخالفة أمره ، بل لا يخشى غيره حق الخشية[3] ،

(١) سورة التوبة آية ١٣ (١) سورة الأنفال آية ٣٠

(٢) انظر تفسير الألوسى ٦١/١٠

(٣) تفسير المنار للشيخ رشيد رضا طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب بتصرف ١٠ / ١٧٦

ويأتى النهى عن خشية الكافرين والأمر بخشية الله تعالى وحده فى فى موضع ثالث حيث الحديث عن إخبار الله تعالى المؤمنين بيأس الكافرين من زوال الإسلام أو أن يردوكم إلى دينهم وذلك فى حجة الوداع يوم عرفة ، قال تعالى « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[1] فقوله تعالى : [فلا تخشوهم] أى لا تخافوا منهم أن يغلبوكم أو يبطلوا دينكم « واخشون » فأنا القادر على كل شىء ، إن نصرتكم فلا غالب لكم ، وإن خذلتكم لم يستطع غيرى أن ينصركم »[2] ونظيره قوله تعالى : فلا تخشوا الناس واخشون »[3] .

خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم وذلك فى قوله تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيين والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون »[4] .

فيمكن أن يكون الخطاب فى قوله : « فلا تخشوا الناس واخشون » (ليهود زمان نزول الآية ، والفاء للتفريع عما أخبر من فعل سلف الأنبياء والمؤمنين ليكونوا قدوة لخلفهم من الفريقين .

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيين والربانيين والأحبار ، فهى على تقدير القول ، أى قلنا لهم : فلا تخشوا الناس .

والتفريع ناشىء عن مضمون قوله : « بما استحفظوا من كتاب الله » لأن تمام الاستحفاظ يظهر فى عدم المبالاة بالناس رضوا أم سخطوا ، وفى قصر الاعتداد على رضا الله تعالى[5] .

(١) سورة المائدة آية ٣ (٢) فتح القدير ٢/١١

(٣) سورة المائدة آية ٤٤ (٤) سورة المائدة آية ٤٤

(٥) التحرير التنوير ٦/٢١٠

خشية يوم القيامة

يخاطب الله تعالى الناس منذراً لهم يوم القيامة آمراً بتقواه حق تقاته وأن يخشوا يوما تنقطع فيه أواصر القرب ، لايغنى فيه والد عن ولده ، ولامولود نافع والديه ، كل نفس بما كسبت رهينة .

قال تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا »(١) .

وقال تعالى : « إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاعشية أوضحاها).(٢) وخشية ذلك اليوم :[الخوف من أهوال مايقع فيه ، إذ الزمان لايخشى لذاته]

وهول هذا اليوم لا نظير له بين الناس (يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يؤمئذ شأن يغنيه)(٣) .

فأمر الله تعالى بالتقوى وخشية ذلك اليوم حقيق لتسمع له الآذان وتستجيب له القلوب .

انتفاع أهل الخشية بالانذار

لايتأثر بالقرآن ولاينتفع بالانذار إلا أهل الخشية . قال تعالى : « إنما أنت منذر من يخشاها » .

---

(١) سورة لقمان آية ٣٣ .
(٢) سورة النازعات آية ٤٥ — ٤٦ .
(٣) تفسير التحرير والتنوير ٢٠ / ١٩٣ .
(٤) سورة عبس آية ٣٤ — ٣٧ .

أما المشركون فكانوا يعرضون عن سماع القرآن ويصدون الناس عنه ويقولون : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)(١)

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : (كان رسول الله ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته ،فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)(٢) .

ولما كان الإقبال على سماع القرآن والذكر مفضياً إلى الإيمان بمافيه .

كما قال الوليد بن المغيرة : (إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وإنه يعلو ولا يعلى(٣) .

أتبع قوله : (اتبع الذكر) بجملة (وخشى الرحمن بالغيب) .

(لبيان أن المراد من اتباع الذكر أكمل أنواعه الذى لايعقبه أعراض (٤) .

فحصول فائدة الانذار لمن اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ،ونظير ذلك قوله تعالى : (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير)(٥) .

---

(١) سورة فصلت آية ٢٦
(٢) فتح القدير ٤/٥١٦
(٣) انظر سيرة ابن هشام طبعة دار الجيل ١/٢٤٣
(٤) التحرير والتنوير ٢٣/٣٥٣
(٥) سورة فاطر آية ١٨

خطاب من الله تعالى لرسوله ﷺ مبيناً له أن المواعظ والآيات لا تؤثر فى المشركين ، وإنما ينتفع بهـــا المؤمنون الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة .

وذكرهما تين الصفتين : (يخشون ربهم بالغيب (وأقاموا الصلاة) دون استحضارهم بأشهر ألقابهم قصداً للثناء عليهم .

ومثل ذلك قوله تعالى : (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى »[1] . أى « ما أنزلنا القرآن لشقائك لكن تذكيرا لمن يخشى الله تعالى ويتأثر بالإنذار لرقة قلبه ولين عريكته »[2] .

فالقرآن تذكير لأهل الخشية كما قال تعالى : « سيذكر من يخشى »[3] .

أما الكفار فإنهم لا ينتفعون به ومع ذلك يرسل الله إليهم الرسل لعلهم يهتدون ، ومن ذلك إرسال الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام آمراً إياهما بالذهاب إلى فرعون راجين أن ينظر نظر المتبصر ويمعن الفكر فيما سمع من الذكر فيكون ذلك سببا فى الإجابة أو يخشى عقاب الله تعالى الموعود به على لسانهما .

« إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى »[4] .

---

(١) سورة طه آية ١ — ٢
(٢) روح المعانى ١٦ / ١٥٠
(٣) سورة الأعلى آية ١٠
(٤) سورة طه آية ٤٣ — ٤٤

ويفصل الله القول اللين فى موضع آخر « اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى »[1] .

فقوله : « وأهديك إلى ربك فتخشى » إرشاد إلى معرفة الله تعالى : « وجعل الخشية غاية الهداية لأنها ملاك الأمر ، ومن خشى الله تعالى أتى منه كل خير ومن أمن اجترأ على كل شر »[2] .

ومنه قوله النبى ﷺ فيما رواه الترمذى لسنده عن أبى هريرة : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل »[3] .

وهذا الكافر لم يزدد إلا عتوا ونفورا وفسادا وغرورا ، فلم ينتفع بالتذكير وصدق الله إذ يقول : « سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى »[4] « فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى »[5] .

فالانذار والموعظة نافعان لكل من تجرد عن العناد والمكابرة ، فمن لم يتعظ فلأنه لم يشأ أن يتعظ : « لمن يشاء منكم أن يستقيم وما تشاءون

---

(١) سورة النازعات آيه ١٧ — ١٩
(٢) روح المعانى ٣٠/٣٧
(٣) سنن الترمذى تحقيق إبراهيم عطوة . القيامة باب ١٨ / ٤ / ٦٣٣ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبى النضر .
(٤) سورة الأعلى آية ١٠ — ١١
(٥) سورة النازعات آية ٢١ — ٢٦

إلا أن يشاء الله رب العالمين »[١] . « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون »[٢] .

اهتمام القرآن بأهل الخشية :

اهتم القرآن الكريم بأهل الخشية وأثنى عليهم فقال تعالى : « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله »[٣] .

فهم أصحاب علم بجلال الله تعالى وعظمته . وكل من كان أعلم به تعالى كان أخشى له . « إنما يخشى الله من عباده العلماء »[٤] .

ووصفهم ربهم بعظيم الخصال وحميد الفعال ، وهم المسارعون بالخيرات وهم لها سابقون . فكان لهم الفضل فى الدنيا والجزاء العظيم فى الآخرة . « أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »[٥] .

ومن هنا يدعو القرآن الكريم إلى الاهتمام بأهل الخشية ورفع شأنهم وتعظيم قدرهم ولو كانوا فقراء . « إن أكرمكم عند الله اتقاكم »[٦]

[١] سورة التكوير آية ٢٨ — ٢٩
[٢] سورة الأنبياء آية ٤٨ — ٤٩
[٣] سورة الأحزاب آية ٣٩
[٤] سورة فاطر آية ٢٨
[٥] سورة الرعد ٢٢ — ٢٤
[٦] سورة الحجرات آية ١٣

ولذا عاتب الله نبيه محمداً ﷺ لأجل رجل من أهل الخشية جاء طالباً التزكية لأنه يخشى الله تعالى : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . ومايدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى »[١] .

وهذه الآيات نزلت فى عبد الله ابن أم مكتوم .

أخرج الطبرى والترمذى والحاكم وغيرهم عن عائشة قالت : أنزلت عبس وتولى فى أبن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يارسول الله أرشدنى ، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ... فى هذا أنزلت[٢] .

فى هذه الآيات عتاب رقيق للنبى ﷺ على العبوس والتولى عن هذا الأعمى الذى جاء إليه يريد أن يتعلم بعض أمور دينه ، ولكن النبى ﷺ كان مشغولا بدعوة زعماء المشركين إلى الإسلام .

[١] سورة عبس آية ١ — ١٠

[٢] أسباب النزول للواحدى طبعة مصطفى الحلبى ص ٢٥٢ ، تفسير الطبرى ٣٠/٣١ ، سنن الترمذى ك التفسير ب ومن سورة عبس . وقال عنه أبو عيسى : هذا حديث غريب ، المستدرك للحاكم طبعة دار الفكر ك التفسير تفسير سورة عبس وتولى ٢/٥١٤ وقال عنه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه فقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة ووافقه الذهبى .

وهذا المقام فيه إرشادان يقدم أحدهما على الآخر، إرشاد كافر إلى الإسلام لعله أن يسلم، وإرشاد مسلم إلى الخير لعله يزكى.

وليس فى تأخير ابن أم مكتوم — على أن يعود إليه بعد ذلك — ما يضيع إيمانا.

وما فعله النبى ﷺ اجتهاد منه فيما لم يوح إليه فيه، ولم يعلم أن هذا الكافر مصر على كفره، وأن هذا المؤمن عنده من تهيأ النفس واشراق القلب ما لا يتحقق فى كل وقت.

« وأن ما أوحى به الله إلى نبيه ﷺ فى هذه السورة هو وحى له بأمر كان مغيبا عنه حين أقبل على دعوة المشرك وأرجأ إرشاد المؤمن.

وليس فى ظاهر حالهما ما يؤذن بباطنه وما أظهر الله فيها غيب عليه إلا لإظهار مزية مؤمن راسخ الإيمان من أهل الخشية، وتسجيل كفر مشرك لا يرجى منه الإيمان، مع ما فى ذلك من تذكير النبى ﷺ بما عمله الله من حسن أدبه مع أهل الخشية ورفع شأنهم أمام المشركين »[1]

[1] انظر تفسير التحرير والتنوير ١١٤/٣٠

وصف أهل الخشية

يصف الله تعالى أهل خشيته بأوصاف متعددة منها :

١ — الاشفاق من عذاب الله : — قال تعالى : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون »[1] وسبق تعريف الاشفاق بأنه : — عناية مختلطة بخوف ؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه.

فأهل الإيمان والخشية بسبب خوف عذاب الله تعالى يكونون على حذر، فلا يأمنون مكر الله.

٢ — إقشعرار جلودهم : — قال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »[2].

الاقشعرار : التقبض : يقال : إقشعر جلده : إذا تقبض وتجمع من الخوف[3]. فالقشعريرة : تغير فى جلد الإنسان عند الوجل والخوف فيحدث لأهل الخشية عند سماعهم القرآن الكريم وجل وارتعاش بما يتلقونه من الزواجر فتقشعر منه الجلود.

أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله ابن عروة بن الزبير قال : قلت لجدتى أسماء كيف كان يصنع

(١) سورة المؤمنون آية ٥٧
(٢) سورة الزمر آية ٢٣
(٣) لسان العرب مادة قشعر

أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرءوا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم الله تدمع أعينهم و تقشعر جلودهم(١) .

وروى الواحدى وغيره بسنده عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ إذا اقشعر جلد العبد من خشيه الله تحاتت(٢) عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها(٣) .

واقشعرار الجلد نتيجة لوجل القلوب إذ كيف يصف القلوب بعد ذلك باللين ، فالخوف والفزع يملأن الجسد كله وتظهر علاماته على جلد الإنسان .

٣ — لين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله: قال تعالى : « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) الآية :

اللين : ضد الخشونة ، ويستعمل ذلك فى الأجسام ثم يستعار للخلق — بالضم — وغيره من المعانى ، فيقال فلان لين ، وفلان خشن ، وكل واحد منهما يمدح به طوراً ، ويذم به طوراً بحسب اختلاف المواقع(٤) .

---

(١) فتح القدير ٤/٤٦٠

(٢) تحاتت : تساقطت : انظر النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير تعليق صلاح عويضه ط . دار الكتب العلمية بيروت . باب الحاء مع التاء ١/٣٢٥

(٣) الوسيط للإمام الواحدى ط . دار الكتب العلمية — بيروت تحقيق د / أحمد الجمل وآخرين ٣/٥٧٨ ، قال صاحب مجمع الزوائد فيه أم كلثوم بنت العباس لم أعرفها وبقية رجاله ثقات . (انظر مجمع الزوائد لنور الدين الهيثمى طبعة المقدسى ١٠/٣١٠

(٤) مفردات القرآن للراغب مادة لين .

واللين ضد القساوة كما فى قوله تعالى : فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله »(١) :

فإذا سمع أهل الخشية الوعيد اقشعرت جلودهم فإذا ذكر عقب ذلك آيات الوعد استبشروا بثواب الله تعالى على أعمالهم الصالحة فتطمئن القلوب وينقلب الخوف رجاء .

يقول الواحدى عند تفسير قوله تعالى : « ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ذكر آيات الرحمة : وهذا المعنى قول جميع المفسرين اهـ(٢) .

ويبعث اللين فى قلوبهم مايذكر فى القرآن من آيات الرحمة والوعد بالجنة مثل قوله تعالى : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم »(٣) .

وقوله تعالى : « ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون »(٤)

ولين الجلود : لين خاص ناشئ عن اطمئنان قلوبهم بذكر الله وليست هى الحالة التى كانت قبل قشعريرتها .

---

(١) سورة الزمر آية ٢٢

(٢) تفسير الوسيط ٣ / ٥٧٨ ، وانظر معالم التنزيل للبغوى طبعة الحلبى ٤/٧٦ ، تفسير ابن كثير ٤/٥٠، ٥١

(٣) سورة الزمر آية ٥٣

(٤) سورة الزخرف آية ٦٨ — ٧٠

جزاء أهل الخشية

ذكر الله تعالى جزاء أهل الخشية فى غير ماموضع من القرآن الكريم فقال تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون »[1] ، مبيناً حسن حال المؤمنين وترغيب غيرهم للدخول فى عدادهم فجمع أسباب الفوز فى الدنيا والآخرة وهى :

١ — طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ : وهى امتثال الأوامر واجتناب النواهى .

٢ — خشية الله تعالى .

٣ — التقوى : الحذر من مخالفة التكاليف فى المستقبل .

فالموصفون بذلك هم الفائزون بنعيم الدنيا والآخرة .

وقال تعالى : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم »[2] .

وقال تعالى : « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كريم »[3] ، فجعل عاقبة الذين يخشون ربهم بالغيب المغفرة والأجر الكبير .

---

(١) سورة النور آية ٥٢

(٢) سورة يس آية ١١

(٣) سورة الملك آية ١٢

والمغفرة : « أن يصون العبد من أن يمسه العذاب »[1] ، أى يكفر عنه ذنوبه .

روى الإمام البخارى بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : قال رجل — لم يعمل خيراً قط — إذا مات فحرقوه واذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فو الله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لايعذبه أحداً من العالمين ، فأمر الله البحر فجمع مافيه ، وأمر البر فجمع مافيه ، ثم قال : لم فعلت ؟ قال : من خشيتك وأنت أعلم ، فغفر له[2] .

ووصف الأجر بأنه كريم فى قوله : « فبشره بمغفرة وأجر كريم » إذ أنه الأفضل فى نوعه .

يقول الراغب : « وكل شئ شرف فى بابه فإنه يوصف بالكرم » اهـ[3]

ووصفه فى آية الملك بأنه كبير ، أى بليغ العظمة ، فكأنه بلغ غاية مايبلغ إليه جنسه فكأنه جسم كبير .

وعلى كل فالمراد بالأجر الجنة كما فى قوله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود »[4] .

---

(١) مفردات القرآن للراغب مادة غفر .

(٢) صحيح البخارى ك التوحيد ب قوله [أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وفتح البارى ١٣/٤٧٤ ح ٧٥٠٦

(٣) مفردات القرآن مادة كرم

(٤) سورة ق آية ٣١—٣٤

وقوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » (١) .

وعن قتادة تفسير الأجر الكريم بالجنة (٢) .

وقال تعالى : « أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبر تم فنعم عقبى الدار »(٣) .

فجعل الله تعالى الجنة عاقبتهم وكرمهم فكانت قريبة منهم [وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد](٤) .

[فإزلافها قد يكون بحشرهم للحساب بمقربة منها كرامة لهم عن كلفة المسير إليها ، وقد يكون عبارة عن تيسير وصولهم إليها بوسائل غير فى عادة أهل الدنيا] (٥) .

وقوله : « غير بعيد » يرجح الأول .

وتلك الجنة [جنات عدن] لقوله تعالى : « أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن . . . »(٦) وقوله تعالى : « جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا »(٧) .

---

(١) سورة البينة آية ٨

(٢) روح المعانى ٢١٨/٢٢

(٣) سورة الرعد آية ٢٢ — ٢٤

(٤) سورة ق آية ٣١

(٥) تفسير التحرير والتنوير ٣١٩/٢٦

(٦) سورة الرعد آية ٢٢ ، ٢٣

(٧) سورة البينة آية ٨

والعدن : الإقامة والاستقرار ، يقال : عدن بمكان كذا إذا استقر . أى جنات يقيمون فيها . فليس جزاؤهم التنزه فى الجنات بل أعظم من ذلك الإقامة فيها .

ووصف الجنات بقوله « تجرى من تحتها الأنهار » لبلوغها غاية الحسن ثم طمأنهم بأن هذا النعيم دائم لاينقطع ، « خالدين فيها أبدا » .

وهذا الخلود متوج برضا الله تعالى : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وذلك أفضل الكرامات عند الله تعالى .

وذكر الله تعالى إكرامه لهم : « جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم » فجعل أصولهم وفروعهم وأزواجهم المتأهلين لدخول الجنة لصلاحهم فى الدرجة التى هم فيها ، فمن كانت مرتبته دون مراتبهم لحق بهم .(١) كما قال تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء »(٢) .

ويذكر القرآن الكريم من مظاهر إكرامهم أن الملائكة تتلقاهم فيقولون لهم عند دخولهم الجنة « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود »(٣) .

أى بسلامة من العذاب .(٤) ويقول الله تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبر تم فنعم عقبى الدار »(٥) .

---

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير ١٣ / ١٣١ .

(٢) سورة الطور آية ٢١ .

(٣) سورة [ق] آية ٣٤ .

(٤) فتح القدير ٧٨ / .

(٥) سورة الرعد آية ٢٣ ، ٢٤ .

فترد الملائكة عليهم بكثرة من كل باب إكراما لهم يحيونهم (سلام عليكم) تأنيساً لهم، فما نالوا هذا التكريم إلا بسبب صبرهم.

وفي آية أخرى يبين الله تعالى أن هذا لأجل أعمالهم: [وهذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود](١).

فالخشية من الله تعالى سبب هذا العطاء وذلك التكريم.

جعلنا الله تعالى جميعا ممن يحشرون في زمرتهم، ويشرفنا بمعيتهم فتتلقانا الملائكة بالسلام وتحيينا بالسلام.

خشية الحجارة لله

وردت خشية الحجارة لله تعالى في معرض توبيخ القرآن لبني إسرائيل وتقريعهم على كفرهم مع أنهم شاهدوا كثيراً من الآيات ومنها إحياء القتيل [ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون](٢).

فهي كالحجارة في قسوتها وعدم التأثر، بل هي أشد قسوة من الحجارة [وإنما شبه قلوبهم بالحجار في الغلظة والشدة، ولم يقل كالحديد وإن كان الحديد أصلب من الحجارة، لأن الحديد يلين بالنار، وقد لان لداود عليه السلام بقدرة الله تعالى: ولا تلين الحجارة بمعالجة أبدا، ولأن

(١) سورة [ق] آية ٣٢ - ٣٤.
(٢) سورة البقرة آية ٧٤.

في الحديد منافع، تلك المنافع لا توجد في الحجارة، فشبه الله قلوبهم بالحجارة لقسوتها ولعدم المنفعة فيها.](١)

فلا تتأثر تلك القلوب بالعبر والعظات، أما الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء، فمنها ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريا، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله](٢).

فإن قيل إن الحجر جماد لا يفهم شيئا فكيف يخشى الله؟.

أقول: لا توجد هناك ضرورة لصرف اللفظ عن ظاهره، وتحمل الخشية هنا على المعنى الظاهر، قال تعالى: تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولدا](٤).

فإذا كانت الجبال تسمع الباطل فتتأثر به فهكذا تهبط من خشية الله تعالى، وليس هذا ممتنعاً، وسبحان من خشعت الكائنات من جلال عظمته [وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا](٥).

وقال تعالى: [وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء](٦).

[١] انظر التفسير الوسيط للإمام الواحدي النيسابوري ١٥٨/١، معالم التنزيل للبغوي ١ / ٧٤، وتفسير ابن كثير ١١٣/١.
[٢] تفسير ابن كثير ١٨٣/١.
[٤] سورة مريم آية ٩٠ — ٩١.
[٥] سورة الإسراء آية ٤٤.
[٦] سورة فصلت آية ٢١.

وروى الإمام البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول : [كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل ، فكان النبى ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليها فسكت][1] .

وروى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة قال : رسول الله ﷺ : [إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىَّ قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن][2] .

ومن ذلك قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله »[3] .

فالجبل على صلابته وقسوته لو سمع كلام الله تعالى وفهمه لرأيته متشققا من خشية الله .

وإذا كان الأمر كذلك فإنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفئدة ، وفى هذا توبيخ للكفار حيث إنهم لم يعظموا كتاب الله ولم يخشعوا له ولم يتعظوا بما فيه .

[1] صحيح البخارى ك المناقب ب علامات النبوة ، فتح البارى ٦٩٦/٦

[2] صحيح مسلم ك الفضائل ب فضل نسب النبى وتسليم الحجر عليه قبل النبوة .

[3] سورة الحشر آية ٢١ .

النوع الثانى :

خشية العباد بعضهم بعضا

ويشتمل على :

١ — خشية هارون كلام موسى .

٢ — خشية العبد لصالح دفع الغلام والديه إلى الكفر .

٣ — المؤمنون لايخشون المشركين .

٤ — خشية المنافقين الدوائر .

خشية هارون كلام موسى

وردت خشية هارون من قول أخيه موسى عليهما السلام فى معرض الحديث عن نهى هارون بنى أسرائيل عن عبادتهم العجل قبل أن يعود سيدنا موسى من مناجاة ربه فى جانب الطور الأيمن . قال تعالى : « ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى »[1] .

ولما رجع سيدنا موسى إلى قومه بعد مناجاة ربه غضب من قومه غضبا شديداً فقال لهم : « ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسنا » بأن أعطاكم التوارة فيها هدى ونور ، أو عدكم ذلك فطال عليكم زمان الإنجاز فأخطأتم بسببه »[2] .

[1] سورة طه آية ٩٠ ، ٩١

[2] انظر تفسير أبى السعود ٣٥/٦

قال تعالى إخباراً عن ذلك : « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هـذا إلهكم وإله موسى فنسى »[١] .

فنصحهم هارون وحذرهم ليتركوا عبادة العجل .

وكان جوابهم : «لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى »[٢] .

أى لن نزال مقيمين على عبادته حتى يرجع إلينا موسى .

فلما رجع موسى إليهم وقد امتلأ غضباً قال لأخيه وأخذ بشعر لحيته ورأسه ويجره إليه : « ياهرون مامنعك إذ رأيتم ضلوا ألا تتبعنى »[٣] .

أى « أى شىء منعك حين رؤيتك لضلالهم بعبادة العجل من أن تتبعنى فى الغضب لله تعالى وتقاتلهم على كفرهم »[٤] .

« أفعصيت أمرى » من القيام بما يصلح حالهم ، وقد قال له « اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين »[٥] .

---

[١] سورة طه آية ٨٦—٨٨
[٢] سورة طه آية ٩١
[٣] سورة طه آية ٩٢—٩٣
[٤] انظر تفسير أبى السعود ٣٧/٦
[٥] سورة الأعراف آية ١٤٢

والغضب أحد صفات موسى عليه الصلاة والسلام ، وهذا غضب لدين الله ، وغضبه لله ملكه فيه ، والمفاجأة قاسية عليه .

وفى لمحة أخرى يبين القرآن الكريم شدة انفعاله : « وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه »[١] .

ويحاول هارون أن يهدأ غضب موسى عليهما السلام « قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى »[٢] فيستجيش فى نفسه عاطفة الأخوة الرحيمة ، ويبين له حقيقة موقفه وأنه لم يألو جهداً فى نصح القوم ونهيهم عن عبادة العجل ، واستهل كلامه بهذا النداء الرقيق ، وتلك الوشيجة الرحيمة استعطافاً وترقيقا لقلبه « لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، فإنى لم أعص أمرك ولكن خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا . « أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل » برأيك ولم تراع وصيتى لك « اخلفنى فى قومى وأصلح ... » الآية :

وكان وجهة نظر هارون علية السلام أنه رأى أن البقاء فيهم والنهى عن عبادة العجل والمحافظة على اجتماعهم إلى أن يأتى موسى فيرى رأيه أصلح ولا سيما أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه .

---

[١] سورة الأعراف من الآية ١٥٠
[٢] سورة طه آية ٩٤

خشية العبد الصالح دفع الغلام والديه إلى الكفر

وردت خشية الخضر فى معرض بيان كشف الستار عن حكمة تصرفه تلك التصرفات العجيبة حينما صحبه سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما»[1].

فخشى العبد الصالح أن يغشى الغلام والديه المؤمنين طغيانا عليهما وكفرا.

يقول العلامة ابن عاشور: — وأما تصرفه — أى العبد الصالح — فى قتل الغلام فتصرف بوحى من الله جار على قطع فساد خاص علمه الله وأعلم به الخضر بالوحى. فليس من مقام التشريع، وذلك أن الله علم من تركيب عقل الغلام وتفكيره أنه عقل شاذ وفكر منحرف طبع عليه بأسباب معتادة من انحراف طبع وقصور إدراك، وذلك من آثار مفضية إلى تلك النفسية وصاحبها فى أنه ينشأ طاغيا كافرا.

وأراد الله اللطف بأبويه بحفظ إيمانهما وسلامة العالم من هذا الطاغية لطفا أراده الله خارقا للعادة جاريا على مقتضى سبق علمه ا.هـ المقصود منه[2].

وأراد العبد الصالح أن يرزقهما الله ولدا أفضل منه «زكاة» طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. «وأقرب رحما» أقرب رحمة عليهما وبرا بهما، أو أنه أحب إليهما من هذا الغلام إما لزيادة حسن خُلقه — بالضم — أو خلقه بالفتح أو الاثنين معا[3].

(١) سورة الكهف آية ٧٩، ٨١ (٢) التحرير والتنوير ١٣/١٦

(٣) روح المعانى ٣٣٤/١٦ بتصرف

المؤمنون لا يخشون المشركين

يتحدث القرآن الكريم عن المؤمنين الذين يستبشر الشهداء بما هو مدخر لهم عند مليك مقتدر مبيناً صفاتهم مادحاً لهم على حسن إجابتهم لله ورسوله، وثباتهم واعتمادهم على الله.

«الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ٭ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ٭ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم»[1].

خرج هؤلاء المؤمنون بعد ما أصابهم القرح يوم أحد ملبين أمر رسول الله ﷺ وقد كفاهم الله أمر عدوهم.

هذا واختلف العلماء فى نزول هذه الآيات.

فذهب أكثر المفسرين إلى أنها نزلت فى شأن غزوة حمراء الأسد. واختاره ابن كثير.

وذهب آخرون إلى أنها نزلت فى بدر الموعد[2].

وأياما كان الأمر فالآية تخبرنا عن قول المثبطين للمؤمنين «إن الناس

(١) سورة آل عمران آية ١٧٢ — ١٧٤

(٢) تفسير ابن كثير طبعة المكتبة العصرية — بيروت ٣٧٩/١ وروح المعانى ٤ / ٢٣٧

قد جمعوا لكم ، فالمشركون قد جمعوا جموعهم ليبيدوكم فآخشوهم ولكن المؤمنين الصادقين اعتمدوا على خالقهم ومدبر أمرهم ، ولم يفت كلام المثبطين فى عضدهم ، بل زادهم إيمانا ، وقالوا فى ثقة بالله واطمئناناً به : « حسبنا الله ونعم الوكيل » . وهذا يدل على يقينهم فى نصر الله تعالى لهم .

وكانت العاقبة أن الله أنجاهم ، لم يمسسهم سوء ونالوا رضوان الله تعالى : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » الآية .

وأما ما ورد فى قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا »[1] .

فالأمر فيه كما ذهب بعض العلماء أنها نزلت فى حق المؤمنين . وذهب آخرون أنها نزلت فى شأن المنافقين .

أدلة أصحاب الرأى الأول : —

روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس : أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبى ﷺ بمكة ، فقالوا : يانبى الله ، كنا أعزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، قال : « إنى أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم »[2] .

(١) سورة النساء آية ٧٧

(٢) تفسير ابن كثير ١/٤٦٧

ونسب الإمام الرازى هذا القول إلى الكلبى[1] .

واحتج أصحاب هذا الرأى « بأن الذين يحتاج الرسول ﷺ أن يقول لهم : كفوا عن القتال هم الراغبون فى القتال ، والراغبون فى القتال هم المؤمنون ، فدل هذا على أن الآية نازلة فى حق المؤمنين .

وحب الحياة والنفرة عن القتل من لوازم الطباع البشرية ، فالخشية المذكورة فى هذه الآية محمولة على هذا المعنى ، وقولهم : « لم كتبت علينا القتال » محمول على التمنى لتخفيف التكليف لا على وجه الإنكار لإيجاب الله تعالى »[2] .

أدلة أصحاب الرأى الثانى : —

أن الآية مشتملة على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين لأن الله تعالى قال فى وصفهم : « يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالمنافقين ، لأن المؤمن لا يجوز أن يكون خوفه من الناس أزيد من خوفه من الله تعالى .

ولأنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ربنا « لم كتبت علينا القتال » والاعتراض على الله ليس إلا من صفة الكفار والمنافقين .

وأن الله تعالى قال للرسول : « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » وهذا الكلام يذكر مع من كانت رغبته فى الدنيا أكثر من رغبته فى الآخرة ، وذلك من صفات المنافقين[3] .

[1] مفاتيح الغيب ١٠/١٤٧

[2] المرجع السابق ١٠/١٤٧ ، ١٤٨ بتصرف

[3] انظر تفسير الرازى طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٠/١٤٨ وتفسير الوسيط لفضيلة الاستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى طبعة دار المعارف ٣/٢٢٤

والأولى حمل ذلك على المنافقين ، لأن السابق من الآيات يتحدث عن المنافقين وضعاف الإيمان الذين أقعدهم ضعفهم عن الجهاد وكراهيتهم الموت إلى الخوف من القتال ، واللاحق من الآيات « وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » . وهذا من كلام المنافقين .

وعلى ذلك فهؤلاء حين فرض الله عليهم القتال « يخشون الناس » يخافون خوفا شديدا من الكفار أن يقتلوهم « كخشية الله أو أشد خشية » كما يخافون من الله أن ينزل بهم بأسه أو أشد من ذلك .

فلو كان هؤلاء مؤمنين ما جعلوا خشيتهم للناس كخشيتهم الله ومن باب أولى ألا يجعلوا خشيتهم الناس أشد من خشيتهم لله تعالى .

خشية المنافقين الدوائر

يبين القرآن الكريم حالة واقعة فى المجتمع المدنى ناتجة عن الأوضاع التى كانت قائمة فى العلاقات بين المنافقين واليهود يقول الله تعالى : « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين »[1] .

فهذا إخبار من الله تعالى عن بعض المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود والنصارى ويغشون المؤمنون ويقولون : [نخشى أن تدور دوائر لليهود والنصارى على أهل الإسلام ، أو تنزل بهؤلاء المنافقين نازلة فيكون بهم إليهم حاجة] .

ويجوز أن يكون من قول عبد الله بن أبى بن سلول[2] .

لكن حمل اللفظ على العموم أولى ويدخل فيه ابن أبى وغيره .

والمراد بالمرض : النفاق .

والمسارعة : تبين حال القوم فى موالتهم اليهود والنصارى كأنما يتسابقون إليها تسابقاً معللين تلك المسارعة بقولهم :

[نخشى أن تصيبنا دائرة] :

والمراد بالدائرة قولان : —

أحدهما : الجدب والمجاعة ، قاله ابن عباس

(١) سورة المائدة آية ٥٢

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى وبهامشه تفسير النيسابورى ٦/١٨٠

الثانى : — إنقلاب الدولة لليهود على المسلمين . قاله مقاتل[١] .
أى يظفر المشركون بالمسلمين فتكون دولتهم وتبطل دولته ، فيصيبنا منهم ماننكره .

لكن هذه الحجة علامة على مرض قلوبهم ، إذ لاناصر إلا الله ، ولاولى إلا الله ، والإستنصار بغيره ضلال « هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[٢] .

ويرد الله تعالى عليهم عللهم الباطلة ويقطع أطماعهم الفارغة مع بشارة المؤمنين بحصول مايرجون « فعسى الله أن يأتى بالفتح أوأمر من عنده فيصبحوا على ماأسر فى أنفسهم نادمين » الآية .

والفتح : ظهور النبى ﷺ على الكافرين ، ومنه : ماوقع من قتل مقاتلة بنى قريظة وسبى ذراريهم ، وإجلاء بنى النضير ، وقيل : فتح بلادالمشركين على المسلمين ، وقيل فتح مكة .

والمراد ، بالأمر من عند سبحانه : هو كل ماتندفع به صولة اليهود ومن معهم وتنكسر به شوكتهم ، وقيل هو إظهار أمر المنافقين وإخبار النبى ﷺ بما أسروا فى أنفسهم وأمره بقتلهم ، وقيل : هو الجزية التى جعلها الله عليهم ، وقيل الخصب والسعة للمسلمين فيصبح المنافقون « على ماأسروا فى أنفسهم » من النفاق الحامل لهم على الموالاة نادمين على ذلك لبطلان الأسباب التى تحيلوها وانكشاف خلافها[٣] .

---

(١) زاد المسير لابن الجوزى طبعة المكتب الإسلامى ٢/٣٧٩ بتصرف .
(٢) سورة التوبة آية ٥١
(٣) انظر فتح القدير ٢/٦٤

النوع الثالث :

خشية العباد مالايرجون

ويشتمل على مايأتى :

١ — خشية الآباء ترك ذرية ضعافا .

٢ — خشية الشباب العنت .

٣ — خشية المشركين الفقر .

خشية الآباء ترك ذرية ضعافا

يخاطب القرآن الكريم الآباء بما يمس شغاف قلوبهم المرهفة المرهفة الحس بأمر يتعلق بذريتهم الصغار الضعاف حيث لايكون لهم والد يرعاهم ، ولا مربى يتعاهدهم ولا عاصم يحميهم . محركا بذلك عاطفتهم مثيراً مشاعرهم تجاه اليتامى الذين تحت أيديهم بعد أن فقدوا آباءهم .

قال تعالى : « وليخش الذين لوتركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً »[١] .

فقد يوكل أمر ذريتكم غداً إلى غيركم من الأحياء بعد موتكم كما هو الحال بالنسبة لهؤلاء اليتامى ، فلتتقوا الله تعالى فيما توليتم من أمور هؤلاء الضعاف لعل الله تعالى يجعل لذريتكم من بعدكم من يقوم على

---

(١) سورة النساء آية ٩

أمرهم ، والشفقة عليهم آمراً إياهم بتقواه وأن يقولوا قولا سديدا .

هذا وللمفسرين فى هذه الآية أقوال :

أولاها : — أن الآية أمر من الله تعالى للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم مثل مايحبون أن يفعل بذريتهم بعد وفاتهم ، أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى: « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » ، يعنى بذلك الرجل يموت وله أولاد صغار ضعاف يخاف عليهم العيلة والضيعة ، ويخاف بعده ألا يحسن إليهم من يليهم ، يقول : فإن ولى مثل ذريته ضعافاً يتامى فليحسن إليهم ولا يأكل أموالهم إسرافاً وبداراً خشية أن يكبروا[1] .

واستحسن هذا القول الحافظ ابن كثير قائلا : وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل أموال اليتامى — ظلما اه[2] .

القول الثانى : — أن هذا خطاب مع الذين يحضرون عند المريض فيقولون له : إن ذريتك لايغنون عنك من الله شيئا ، فأوص بمالك لفلان وفلان ، ولا يزالون يأمرون بالوصية إلى الأجانب إلى أن لا يبقى من ماله للورثة شئ أصلا ، فقيل لهم ، كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم فى الضعف والجوع من غير مال ، فاخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الضعفاء من ماله[3] .

(١) تفسير ابن جرير ١٨٣/٤
(٢) تفسير ابن كثير ٤٥٦/١
(٣) انظر تفسير الرازى ١٦١/٩

القول الثالث : — أن الخطاب فى الآية للموصين ، وأن الآية تأمرهم بأن يشفقوا على ورثتهم فلا يسرفوا فى الوصية لغيرهم ، لأن الإسراف فى ذلك يؤدى إلى ترك الورثة فقراء بعد موته[1] .

وأياما كان الأمر فهؤلاء جميعاً مأمورون بتقوى الله تعالى ، وليقولوا قولا سديداً ، فالأوصياء لا يؤذون اليتامى ، ويكلمونهم كلاماً جميلا ، والجالسون عند المريض يحملونه على عدم الإسراف فى وصيته والا يحوم أولاده الصغار من بعده .

(١) المرجع السابق .

خشية الشباب العنت

إن من رحمة الله تعالى بعباده رفع الحرج عنهم، فلم يكتب شعوراً، ولم يحبس طاقة كامنة، لأنه لا يريد أن يشق عليهم، ولا أن يقعوا فى الإثم فجاء هذا الشرع الحنيف بمنهج ميسر منسجم مع الفطرة الإنسانية، فشرع الزوج وآثره من الحرة فى الغنى والسعة، وجعل الزواج من غير الحرة رخصة فى حالة عدم الطول مع الخوف من الوقوع فى الفاحشة بسبب تغلب الشهوة.

قال تعالى: «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب ذلك لمن خشى العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم»[1].

والصبر عن عن نكاح الإماء تعففاً حتى تتحقق القدرة على نكاح الحرائر أفضل من نكاحهن وإن رخص فيهن،

والحكمة فى هذا «أن حق الموالى فيهن أقوى فلا يخلصن للأزواج خلوص الحرائر إذ هم يقدرون على استخدامهن سفراً وحضراً، وعلى بيعهن للحاضر والبادى، وفى ذلك مشقة عظيمة على الأزواج لاسيما إذا ولد لهم منهن أولاد، ولأنهن ممتهنات مبتذلات خراجات ولاجات، وفى هذا ذل ومهانة سارية للناكح، ولا يكاد يتحمل ذلك غيور[2] فالأولى ترك ذلك النكاح وإن كان الله تعالى قد رخصه رحمة منه والله غفور رحيم.

---

(١) سورة النساء آية ٢٥ (٢) انظر روح المعانى ١٣/٥

خشية المشركين الفقر

يتحدث القرآن الكريم عن الكافرين مبيناً تبلد شعورهم وتحجر قلوبهم وانحراف سلوكهم، فكان الواحد منهم يقتل ولده خشية الفقر، ونسى أن الذى رزقه هو الذى يرزق ولده.

قال تعالى: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً»[1] فهذا نهى عن قتل أولادهم خشية الفقر بعد ذكره تعالى: «إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» فالأرزاق بيده لا بيد غيره فيبسطها لمن يشاء ويقدر على من يريد.

وقد تكفل الله تعالى بأرزاق الخلق ورزقكم فلم تقتلون أولادكم، قال تعالى: «إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين»[2] «وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها»[3].

يقول العلامة الألوسى: وظاهر اللفظ النهى عن جميع قتل الأولاد — ذكوراً كانوا أو إناثاً — مخافة الفقر والفاقة، لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن، فنهى فى الآية عن ذلك. فيكون المراد بالأولاد البنات، وبالقتل الوأد. اهـ[4].

---

(١) سورة الإسراء آية ٣١
(٢) سورة الذاريات آية ٥٨
(٣) سورة هود من الآية ٦
(٤) روح المعانى ٦٦/١٥

والمعلوم أن العرب كانوا يئدون البنات بعد ولادتهن ، « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . . . »[١] .

روى الإمام البخارى بسنده عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيرى وكان يحيى المؤودة . يقول الرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها ، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤونتها[٢] .

وفى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » قدم الله تعالى رزق الأبناء على رزق الآباء ، فقال : « نحن نرزقهم وإياكم » ، وفى سورة الأنعام قدم رزق الآباء على رزق الأبناء : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »[٣] فيقضى ذلك أنهم كانوا يئدون بناتهم من أجل أمرين .

الأول : الفقر ، فلا يستطيعون الانفاق عليهن ، وجعلوا الفقر الحاصل داعياً للقتل ، وهذا معنى قوله تعالى : « من إملاق » .

الثانى : خشية حدوث الفقر للآباء . « خشية إملاق » فالنهى متوجه فى سورة الأنعام إلى الآباء الفقراء .

---

[١] سورة النحل آية ٥٨

[٢] صحيح البخارى ك مناقب الأنصار ب حديث زيد بن عمرو ابن نفيل .

[٣] سورة الأنعام من الآية ١٥١

وفى سورة الإسراء إلى الآباء الأغنياء الذين يتوقعون الفقر مستقبلا

وأياً ما كان الأمر فإنه كان الواجب عليهم ألا يقدموا على مثل ذلك الفعل الذى يتنافى مع الأخلاق الفاضلة والشعور الإنسانى .

« وقرابة الأولاد قرابة الجزئية والبعضية وهى من أعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على غلظ شديد فى الروح ، وقسوة فى القلب وذلك من أعظم الأخلاق الذميمة »[١] .

ويحذر النبى ﷺ من الاعتداء على الأولاد فى أحاديث كثيرة منها : ما رواه الشيخان عن ابن مسعود قال : سألت النبى ﷺ أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت إن ذلك لعظيم . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك . قلت ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك[٢] .

وهؤلاء المشركون جبلوا على الشح والبخل ، فلو ملكوا خزائن الأرزاق التى جعلها الله لخلقه لبخلوا مخافة أن يصيبهم الفقر ، مع أنه تعالى خزائنه ملأى لا تنفذ أبداً .

قال تعالى : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم

---

[١] مفاتيح الغيب ١٥٧/٢٠

[٢] صحيح البخارى ك التفسير ب قوله : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

صحيح مسلم ك الإيمان ب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده .

خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً »[1] .

يقول العلامة الألوسى : وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى التى لا يبلغهـــا الوهم ، حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله تعالى التى لا تتناهى ، وانفردوا بملكها من غير مزاحم ، لأمسكوا عن النفقة من غير متمض إلا خشية الفقر[2] اه المقصود منه .

---

[1] سورة الاسراء آية ١٠٠

[2] روح المعانى ١٥/١٧١

فهرس المراجع

١ — القرآن الكريم .

٢ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم للعـــلامة أبى السعود العمادى طبعة دار إحياء التراث العربى .

٣ — أسباب النزول للإمام الواحدى النيسابورى — طبعة مصطفى الحلبى — الطبعة الثانية .

٤ — البرهان فى علوم القرآن لبدر الدين الزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، نشر مكتبة التراث .

٥ — بصائر ذوى التميز فى لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين الفيروزآبادى تحقيق محمد على النجـار ، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٦ — تفسير التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور — الدار التنوسية للنشر .

٧ — تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير — نشر مكتبة دار التراث الإسلامى — سوريا — حلب .

٨ — التفسير الكبير [مفاتيح الغيب] للإمام الفخر الرازى — طبعة دار الكتب العلمية بيروت .

٩ — تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا — طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٠ — التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى — طبعة دار المعارف بالقاهرة .

١١ — جامع البيان عن تأويل آى القرآن للإمام محمد بن جرير الطبرى . الطبعة الأميرية وعلى هامشه تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى .

١٢ — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للعلامة الألوسى . طبعة دار الفكر .

١٣ — زاد المسير لأبى الفرج بن الجوزى . طبعة المكتب الإسلامى بيروت .

١٤ — سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى . طبعة دار إحياء التراث العربى — تحقيق إبراهيم عطوة .

١٥ — السيرة النبوية لابن هشام المعافرى . طبعة دار الجيل لبنان .

١٦ — صحيح الإمام البخارى . للإمام عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى طبعة دار ابن كثير . سوريا ، حلب .

١٧ — صحيح مسلم . للإمام مسلم بن الحجاج النيسابورى . تحقيق وترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى طبعة دار إحياء الكتب العربية .

١٩ — فتح البارى شرح صحيح للحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقى . طبعة الأهرام التجارية . الطبعة الأولى

١٩ — فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن على الشوكانى طبعة مصطفى الحلبى . الطبعة الثانية .

٢٠ — الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى طبعة دار الأفاق الجديدة بيروت . الطبعة الخامسة .

٢١ — لسان العرب لجمال الدين محمد بن منظور . طبعة دار المعارف بالقاهرة .

٢٢ — مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى . طبعة مكتبة المقدسى بالقاهرة .

٢٣ — المستدرك للإمام أبى عبد الله الحاكم النيسابورى . طبعة دار الفكر .

٢٤ — معالم التنزيل للإمام الحسين بن مسعود البغوى . طبعة مصطفى الحلبى .

٢٥ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى . طبعة دار الشعب .

٢٦ — معجم مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . طبعة مصطفى الحلبى . الطبعة الثالثة .

٢٧ — مفردات القرآن للراغب الأصفهانى . طبعة دار الفكر بيروت .

٢٨ — النهاية فى غريب الحديث والأثر للإمام ابن الأثير الجزرى . تخريج وتعليق أبى عبد الرحمن صلاح محمد عويضه . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى .

٢٩ — الوسيط للإمام الواحدى النيسابورى ، تحقيق ، د / أحمد النجولى الجمل وآخرين ، طبعة الكتب العلمية بيروت .